

وبعد وفاة الإمام علي سنة ٤٠ هـ مكث أبو الأسود في العراق وكان من أوائل المتصدرين لدراسة علوم العربية والبحث في مسائلها. ولكنه اشتهر بوضع «علم النحو» وإليه نسب وضعه.

* * *

وحول أبي الأسود دارت خلافات كثيرة من حيث وضع علم النحو وطريقة وضعه.

فقد شك بعض العلماء في نسبة وضع النحو إليه. فمن قائل إنه أول واضع له، ومن قائل إن واضعه نصر بن عاصم الثقفي سنة ٨٩ هـ، ومن قائل أنه الخليل بن أحمد الثقفي سنة ١٧٠ هـ. وذهب علماء الشيعة إلى أن الإمام علي هو الواضع لعلم النحو. وتخطت بعض المحدثين في تعيين الواضع الأول متأثرًا بما ذكره ريكندورف Reckendorf في دائرة المعارف الإسلامية حيث نفي ذلك بقوله «وليس حقًا ما يقال إنه واضع أصول النحو العربي» (٢) وظن هؤلاء أن واضعه الخليل بن أحمد. وهو قول مردود بالأدلة العقلية والنقلية.

الدليل القلي: أن المنهج العلمي ينص على «أن الأدلة العلمية لا توصف بالبطلان ما لم يتم الأدلة القطعية على بطلانها». فتحقق المسائل العلمية في نظر المنهج العلمي هو البناء لا الهدم. بينما يأخذ أمثال هؤلاء النخبطين بالقوانين الهدامة التي ابتدعها فرنسيس بيكون Francis Bacon واحتذاها المتشركون من بعده. فأتى رى أن شمار هؤلاء بطلان كل شيء ما لم يتم الدليل التجريبي على صحته المبطل (٣) بينما شمار المنهج العلمي الذي وضعنا أسسه التصديقي بالقضايا العلمية المروية عن القدماء ما لم يتم الدليل المادي على بطلانها (٤). وشتان ما بين المذهبين. فالفرق بينهما - كما ترى - كالفرق بين من يبني ومن يهدم.

ذكرى أبي الأسود

للاستاذ حامد حفي داود

* * *

إن ذكرى وفاة أبي الأسود الدؤلي تيمت إلى الذكرى فذكرية خطية من تدوين «علم النحو» وهو أول ما دون من علوم العربية. ولا أكون مبالغًا إن قلت أول ما دون من العلوم قاطبة في الإسلام.

وهي بهذا القدر ذكرى عزيزة علينا تحرك النفس وتجدد الأمل إلى دراسة «تاريخ علوم اللغة» التي طالما نادينا بتحقيق دراستها، ولأسباب وأن المستشرقين أنفسهم - بعد أن رسوا بعض المناهج في دراسة - «تاريخ الآداب العربية» عجزوا عن تأريخ علوم اللغة، وفي مقدمتها تأريخ علم النحو. ولعل ذلك راجع إلى ما بين تاريخ هذا العلم ونفسية العربي الخالص من صلابة قوية فلا يتم تأريخه بدون تحقيقها. أريد أن أقول: إنه لا يستطيع تأريخ هذا العلم الاخرى عارف بأمرار اللغة وقواعدها التسمية دارس لها دراسة المحصن المدقق، ولم بكل ما وصل إلى أيدينا من تراث الأقدمين وذلك ما دفعني إلى إحياء ذكرى أبي الأسود علنا من ذكراه نستلهم درات تاريخ العلوم العربية (١)

* * *

في سنة ٦٩ هـ منذ الف وثلاثمائة سنة توفي أبو الأسود الدؤلي وقد كان علما من أعلام العربية ورجلا من رجالها السابقين الذين وضعوا الأسس ودوتوا المسائل. وقد كان تلميذا للإمام علي بن أبي طالب، وعنه تلقى كثيرا من المسائل الدينية والعربية قبل أن تصبح علوماً مبنوية على النحو المصطلح عليه عندنا.

(١) وقبل سنة ٦٧ هـ وقبل سنة ٦٨ هـ والراجع ما ذكرناه.

(٢) دائرة المعارف الإسلامية ج ١ ص ٣٠٨ ص ٦

(٣) وهو قانون خطأ لأن التجربة غير ميسورة في كل وقت.

(٤) سواء بالنسب المارث أو بحسن عدم تقبل العقل النصف لما.

(١) لصاحب هذا المقال مؤلفات مفردة في تاريخ العربية منها:

١ - المنهج العلمي في تاريخ العلوم العربية. تاريخ البديع من القرن الثاني إلى أواخر القرن الرابع عشر.

والدليل القلبي : تواتر الرواية القديمة على نسبة الوضع إلى أبي الأسود وليس هناك أحد من القدماء والتأخرين من أنكرها . وليس بعد قصة أبي الأسود مع علي ، وقصته مع زياد بن أبيه ، وحديث ابنه أبي حرب من دليل نقل . وقد قال الجاحظ التوفى سنة ٢٥٥ هـ « أبو الأسود معدود في طبقات من الناس ، وهو في كلها مقدم ما توار عنه الفضل في جميعها ، كان معدودا في التابعين والعماء والشعراء والمحدثين والأشرف والمرسان والآراء والادباء والنحويين ... »

ولم يبق هناك من خلاف بين القدماء إلا فيما إذا كان أبو الأسود تلقى هذه الأصول من الإمام علي أم اعتمد فيها على دراسته الخاصة - لدوافع مختلفة سنتحدث عنها في فرصة أخرى - وامل ذلك لا يبق أن يكون أبو الأسود واضع علم النحو بإرشاد الإمام دفع إليه ورقة فيها أصول ذلك العلم ثم قال له : انج هذا النحو فسمى ما وضعه نحواً .

وإلى مثل هذا ذهب الشيخ خالد الأزهرى المتوفى سنة ٨٩٠ هـ « وتد تضافرت الروايات على أن أول من وضع علم النحو أبو الأسود وأنه أخذه أولاً من علي بن أبي طالب رضي الله عنه » (١) وقال الشيخ عبد القادر البندادي المتوفى سنة ١٠٩٣ هـ « وهو واضع علم النحو بتعليم علي رضي الله عنه » (٢)

فكان أبو الأسود وضع هذا العلم مستنيراً بالأصول التي دفعها إليه الإمام . ومن هنا ترى أن الخلاف بين آراء الشيعة وآراء غيرهم شكلي محض لا يحس الجوهر . فنسبة النحو إلى علي نسبة الوجه والمرشد، ونسبته إلى ابن الأسود نسبة المدون والواضع . والخلاف الثاني : ما هي الأصول الأولى التي فصح أبو الأسود على غرارها وما هي المسائل التي عالجها في كتابه الأول، وما طريقة ذلك ؟

١ - التصريح للشيخ خالد ج ١ ص ٦

٢ - خزائن الأدب للبندادي ج ١ ص ٢٥٦

ظن كثير من العلماء أن أبا الأسود كان يجيد السريانية ، وكان يخاطب السريان والسكلدان في أرض العراق، وقد كان لسريان نحو قريب الشبه من نحونا وقواعد تشبه قواعد العربية ، وكلاهما من اللغات السامية . هذه ظنون جالت بأدمغة المفكرين ممن حاولوا التفكير في تاريخ علوم اللغة . فقالوا : إن أبا الأسود درس اللغة السريانية واستنبط قواعدها وطبقها على اللغة العربية . - وبدعم هذا الرأي عذرهم أن قواعد اللغة السريانية وضعت في القرن الخامس حين وضع بمقرب الرهاوى المتوفى سنة ٦٠ هـ كتابا في قواعد السريانية ، بينما وضعت قواعد اللغة العربية في القرن السابع . وإذا كان أبو الأسود قد توفى سنة ٢٨٩ هـ تقريباً عرفنا أن محاولة تدوين قواعد العربية كاتب بعد أكثر من قرنين من المحاولة الأولى التي أجريت على السريانية .

والراجح في نظر المنهج العلمي أن أبا الأسود لم يتأثر بالسريانية ولم ينقل شيئاً من قواعدها إلى العربية ؛ وأن التشابه بين اللغتين سرود إلى ما بين طبيعة العربية وطبيعة السريانية من صفة - وانتمائهما إلى أصل واحد هو اللغة السامية . وبمزز هذا الرأي التي ذهبت إليه نماء النحو في اللغة العربية وجوده وانكشافه في اللغة السريانية وغيرها من اللغات السامية الأخرى . كما أنه ليس هناك من دليل مادي يؤيد دعوة المخالفين وهي دعوة ظنية لا يعتمد بها المنهج العلمي .

فنحن لا ننكر نسبة وضع النحو إلى أبي الأسود لأنه ليس هناك من دليل مادي يرد هذا النقل ، ونرفض كل الرفض تأثره بالسريانية لأنه ليس هناك دليل مادي يؤيد هذا الظن . -

هذه ذكرى أبي الأسود - وقد مضى على وفاته ثلاثمائة عشر قرناً . وإني لأرجو أن تثير في نفوس المفكرين الحمية إلى دراسة علوم اللغة دراسة تاريخية تفصيلية . وإني لأرجو أن أعيد هذه المحاولة في « تاريخ النحو » وقد بدأت مشيئتها بالأمس القريب في « تاريخ البديع » .

ناصر هفني داور الجهرجاري

دبلوم معهد الدراسات العليا